

أنيس صايغ*

هذا هو جورج حبش

لا ضرورة لأن تكون عضواً في حركة القوميين العرب منذ مطالع الخمسينيات من القرن الماضي كي تعرف، عن كثب، الدور الرائد للدكتور جورج حبش في تأسيس أول وأنجح تجمع قومي وحدوي يمتد نشاطه إلى أكثر من نصف أقطار الوطن العربي، ويضم آلاف المثقفين وخريجي الجامعات وعناصر وقوى الشعب العامل وجماهير الأمة. ولا ضرورة لأن تكون عضواً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منذ أواخر ستينيات القرن المنصرم لتلمس جهد الدكتور جورج حبش وحرصه الشديد على تنظيم العمل الفدائي الفلسطيني وتفعيله وتجنبيه المخاطر والمزالق والتجاوزات التي عاناها وأوقعت في مطبات وانتكاسات نالت من فاعليته وحدت أثاره. ولا ضرورة لأن تكون زاملت جورج حبش وهو بعد على مقاعد الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت، في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، كي تتعرف إلى الخصال والمناقب والمواهب التي تحلى بها هذا الطالب وجسدتها تصرفاته وعلاقاته بزملائه وأساتذته. ولا ضرورة لأن تقرأ ما كتب من مقالات وتوجيهات وتستمع إلى ما ألقى من محاضرات وخطب في عشرات الأندية والمجالس والمناسبات لتطلع على فكره الواضح والصادق، وعلى صحة استنتاجاته وموضوعية تحليلاته وسعة معلوماته وحدة استشرافاته.

هذا هو جورج حبش. إنسان أوسع من فرد، وتأثيره أوسع من محيطه، ومن مكانه وزمانه المباشرين. إنه، بشخصه وفعله، أثر يمتد طويلاً في الزمانين الحاضر والمستقبل، وفي عالمي الوطن وعبر حدود الوطن. تسطو العروبة على فلسطينيته مثلما تسطو الإنسانية على عربيته. لذلك امتزجت نضالاته الفلسطينية من أجل التحرير الناجز لكامل التراب الفلسطيني بنضالاته العربية في سبيل بناء الكيان الواحد الموحد. وكانت فلسطين "من البحر إلى النهر" جزءاً عضوياً من عروبة "من المحيط إلى الخليج"، كما كانت لحمة وجوهر النضال الفلسطيني الوطني والعربي القومي مستمدين من القيم الإنسانية الأزلية: الحرية والديمقراطية والمساواة والعدالة والصدق والحق والخير. ومن أجل بناء هذه القيم وصونها في الوطن العربي دعا جورج حبش إلى إقامة الكيان العربي الموحد. ومن وحي هذه القيم والتزامه بها جاهد في سبيل تحرير فلسطين وإعادة شعبها المقتلع إلى منابته، وفي صد العدوان الصهيوني، وبناء الدولة الفلسطينية الديمقراطية على امتداد الأرض الفلسطينية بحسب حدودها الدولية، من دون أي اعتبار لقرارات دولية وإرادات أجنبية تحابي العدو الصهيوني وتحميه وتعينه وتسند بالسلح والمال والمواقف السياسية والدبلوماسية.

إذاً، فإن نضال جورج حبش من أجل تحرير فلسطين لم يكن في الواقع مسعى ثأرياً وانتقاماً عصبياً من عدو مغتصب للوطن، ولا كان إيمانه بالحدودية تزمناً عنصرياً ولا انكماشاً منغلِقاً وبعيداً عن عالم مترابط الأجناس والحضارات والعطاءات، وإنما كان انعكاساً طبيعياً لتلك القيم الإنسانية والأبدية والعالمية التي اعتنقها نظرياً ومارسها عملياً، قيم الحق والخير والجمال والحرية والمساواة.

هذه عالمية جورج حبش التي كثيراً ما كان يخفيها عن أنظار الناس، مؤيديه ومعارضيه، بصلابته وعناقه في مقاومة الصهيونية والاستعمار والتجزئة والانعزالية والرجعية. لقد أدرك أن هذه الأصنام التي أعلن الحرب عليها منذ فتوته حتى وفاته، أي على مدى ستة عقود، إنما تتعارض مع جميع القيم في أي زمان أو مكان، وأنه في عمله السياسي إنما يخدم قيماً إنسانية مطلقة لا يفرضها زمان ولا يستأثر بها مكان.

لقد أتيت لي أن أعرف إلى جورج حبش ونحن على مقاعد الدراسة في الجامعة الأميركية. وكان بحكم العمر متقدماً عليّ في الدراسة عامين أو ثلاثة أعوام، وكان بحكم تخصصه بعيداً عن الصفوف التي أرتادها. فهو يدرس الطب وأنا أدرس العلوم السياسية والتاريخ، لكن المسافة الأبعد في تجربتنا كانت في المواقف السياسية والانتماءات الحزبية. فحين كان حبش يمر بأطوار إنشاء الجماعات السرية التي التقت فيما بعد لتؤلف حركة القوميين العرب كنت أنا عضواً في الحزب السوري القومي الاجتماعي، وكنت أتسلم بعض المسؤوليات الحزبية في صفوف طلبة الجامعة، الأمر الذي أدى، عملياً، إلى مواجهات سياسية وعقائدية وإلى مواقف متعارضة في التفصيلات والشكل لا في الجوهر: فالمطالب التحررية والحدودية وعداء الصهيونية و"إسرائيل" كانت واحدة. لكن محاولات السعي للحصول على أكبر نسبة من المقاعد في جمعية العروة الوثقى أو مجالس الطلبة لم تكن تفرق بيننا فحسب، بل

كانت تتحول أحياناً إلى نزاعات، بل صراعات حادة ومواجهات عنيفة. وكانت "المعارك" الانتخابية بيننا، أي بين القوميين العرب والقوميين السوريين، هي العنصر الأقوى في المعارك الانتخابية بين صفوف طلبة الجامعة في تلك الأعوام، أي في النصف الأول من خمسينيات القرن الماضي، إذ إن دعاة الاتجاهات الحزبية الأخرى (أي الشيوعيين والإسلاميين والكتائبيين والبعثيين) كانوا آنذاك أضعف من أن يشكلوا قوى يهابها القوميون: العرب والسوريون.

في هذا الجو الطالبية الميسر كان جورج حبش ينتصب بقامته الجسدية والعقلية شخصاً مهيباً وناشطاً متميزاً، يعترف له المؤيدون والمعارضون بشخصية قوية وحجة دامغة ودمائة نادرة وصفاء واضح وصدق نقي، وهو ما جعله يكسب المعارك الانتخابية كلها، جولة بعد أخرى، بالإضافة إلى ثقة الطلبة وإعجابهم على الرغم من الاختلافات السياسية والحزبية. وكان فوزه الأخير هذا أهم من فوزه بعدد لا يستهان به من المقاعد في هذا المجلس أو تلك الجمعية.

إن ستين عاماً من التجارب السياسية لم تبدل رأبي في جورج حبش، ولا حتى رأبي أمثالي من زملائه في الدراسة. لقد بقي جورج بقامته الشامخة عقلاً وفكراً وقلباً وضميراً، في أثناء مراحل النضال الحزبي والسياسي والوطني والمطلبية، كما كان وهو بعد طالب يسعى لنيل شهادة الطب. لم تتغلب عليه أي من الضربات القاسية التي تعرض لها في عقود نضاله الستة، كشخص أو كقائد، أو التي واجهت فصيله أو حزبه، أو شعبه الفلسطيني وأمة العربية. هذه الضربات القاسية التي توالفت خلال هذه العقود الستة، كانت كفيلة أن تحطم إنساناً عادياً: انقسامات في الحركة؛ انشقاقات في الجبهة (وما كان يرافق ذلك من حملات ظالمة وطعنات في الظهر)؛ التواءات وانحرافات في قيادة العمل السياسي الوطني والقومي، الفلسطيني والعربي؛ تخاذل رسمي تحاول أن تغطيه حملات الكبت والقمع والمنع (وكان هو وتنظيمه أول وأكثر من تعرض لها في أكثر من قطر عربي)؛ هزائم عسكرية للأنظمة العربية أمام اعتداءات العدو "الإسرائيلي" وتوسعه على أرض فلسطين كلها وفي أراض مجاورة؛ التفاف دولي حول "إسرائيل" ودعم لها في المجالات كلها على حساب الفلسطينيين والعرب عامة. وكان المصائب لا تأتي فرادى، إذ وقع جورج حبش ضحية عدوان آخر، صحي هذه المرة، فأقعدته طويلاً وحد حركته ونشاطه الجسديين. لكن حبش، الجبار دائماً أمام الآخرين، بقي جباراً أمام نفسه أيضاً. لقد قبل تحدي المرض ونازله بعناد وإن بحركة مشلولة، مثلما قبل تحدي الأنظمة والمنحرفين، وتحدي العدوين الصهيوني والأميركي، فصمد في مقارعتهم ولم يقو أي من الخصوم والأعداء على النيل من عزيمته أو التأثير في قراراته الناتجة من ثوابته.

صفات جورج حبش هذه وغيرها هي التي جعلنا، نحن الذين عاصرناه وعرفناه، نعتبره، بلا مبالغة ولا محاباة، مدرسة حية متكاملة لا مجرد فرد قاد جماعة والتزم قيماً وعاش مبادئه وأفكاره. جورج حبش مدرسة للألاف من بني جيله ومعاصريه، وبعضهم لم يعرفه شخصياً ولا انضوى تحت لواء فصيل يتزعمه، ومدرسة لأجيال مقبلة تتعرف إلى خلقية العمل الوطني والقومي ومناقبيته من خلال التعرف إلى سيرة مواطن فد اسمه جورج حبش. ■

(*) مؤرخ فلسطيني.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx